الشباب واللغة العربية

نشر هذا المقال بجريدة الأهرام – صفحة قضايا وآراء بتاريخ الجمعة ١٤ ديسمبر٢٠٠١م صـ١٠

ترجع أهمية اللغة بشكل عام إلى أن الأفكار لايمكن أن توجد بغير لغة، ولايمكن أن نتصور وجود فكرة مجردة إلا إذا تصورنا وجود مقدار من الماء معلق فى الهواء بغير إناء.

كما ترجع أهمية اللغة أيضا إلى أنها العنصر الأساسى فى كل قومية، وأنها من أهم المقومات الأساسية الشخصية كل أمة، وإذا كانت كل أمة حريصة على لغتها لأنها قوام شخصيتها ورمز عزتها، فإن الأمة العربية ينبغى أن تكون أحرص الأمم على لغتها العربية؛ لأن دستورها السماوى نزل بلسان عربى مبين.

وإذا كانت اللغة الأجنبية ضرورة للإنسان العربى فى العصر الحاضر فلابد أن يتقن قبلها لغته العربية إتقانا كاملا، إذ لاينبغى أن نهتم بالطلاء قبل البناء.

وليكن لنا مثل من الدول الأجنبية نفسها، فكل من اليابان وأمريكا – على سبيل المثال – أصدرت تشريعا يقضى

بعدم تعليم أى لغة أجنبية للأطفال تحت سن ١٤ أو ١٥ سنة.

ولغتنا العربية قادرة على احتواء بعض الكلمات الأجنبية بشرط ألا تكون بديلا عنها، فالكلمات الأجنبية يمكن أن تدخل فى صلب التعبير الأدبى فتكون جزءا من بنائه، وخلية من خلاياه.

وقد ظهرت فى أيامنا هذه كلمات جديدة اتسعت لها اللغة العربية وأصبحت متداولة وطبيعية مثل (عولمة) و(خصصة) و (شفافية) و (فعالية) و (إشكاليات) .....إلخ.

وقد تكفل مجمع اللغة العربية الذى يسمى الآن (مجمع الخالدين)، والذى أُنشئ فى يناير ١٩٣٤ بالمحافظة على سلامة اللغة، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون، وملائمة لحاجات العصر الحديث.

ولكن بكل أسف كانت هناك محاولات من أعداء الأمة العربية للقضاء على هذه اللغة على مر العصور، ومما يُرثى له أن هذه المحاولات لم تقتصر على أعداء الأمة العربية، بل تجاوزتها إلى أبنائها أنفسهم، وإلى شبابها – بصفة خاصة – فأصبحنا نسمع فى لغة التخاطب، وفى التعامل اليومى كلمات أجنبية تتردد على الألسنة بشكل طبيعى، حتى كاد الشباب ينسى أو ينفر من استعمال الكلمات العربية، بل إن بعض الشباب اعتبر النطق بالكلمات العربية مظهر تخلف ورجعية، ولم يدرك أنه بهذا يحقق أهداف أعداء الأمة فى إلغاء الشخصية العربية، وغرس الشعور بالنقص فى نفوس أبنائها وشبابها.

وقد انتشرت فى مصر أسماء مثل (سوبر ماركت) بمعنى السوق الممتازة، و(دليفرى) بمعنى توصيل الطلبات للمنازل، و(تيك أوى) بمعنى تناول وجبات الأطعمة السريعة، و(تنترليه) بمعنى محل تنظيف الملابس، و(ويك إند) بمعنى أجازة نهاية الأسبوع، و(دريم لاند) بمعنى أرض الأحلام، وغير ذلك مما أصبح معروفا باللغة الأجنبية ومجهولا باللغة العربية.

ومما يُؤسف له أن كثيرا من الأمهات يخاطبن أطفالهن بكل اللغات ماعدا اللغة العربية التى هى المظهر الوحيد للأصالة والانتماء، فالأم تُعلم طفلها أن يقول (نو) بدل (لا)، و(برافو) بدل (حسنا)، و(أوكيه) بدل (أوافق)، وهكذا يتشرب الطفل منذ البداية هذه اللغات وينسى لغته الأصلية.

ولاأدرى ماذا يكون شعور هؤلاء الأمهات إذا عرفن أنه لا توجد أى أم أو أى أب انجليزى أو فرنسى أو أمريكى يسمح لنفسه أو لأبنائه باستعمال أى كلمة فى الحديث أو الكتابة من لغة غير لغتهم، اعتزازا بقوميتهم وتاريخهم ووطنهم.

ومن الغريب أن معظم الناس فى مصر تأثروا بالغرب فى كل شئ، ولم يتأثروا بهم فى حرصهم على لغتهم، واعتزازهم بها. لقد أصبحت اللغة الأجنبية عندنا تحظى بالنصيب الأكبر من الاهتمام، وأصبحت مدارس اللغات هى المكان الأنسب لتعليم الشباب، وأصبحت الأسرة المصرية تفاخر بأنها قد اختارت لطفلها الصغير مدرسة تعلمه اللغات الأجنبية منذ نعومة أظافره، حتى إذا شب عن الطوق، واستوى على عوده كان متقنا للغة الأجنبية، وحسبه فى اللغة العربية – على أحسن الأحوال – أن يكون ملما

بهـا إلمامـا يسـيرا، أو أن يكـون مـن أنصـاف المتعلمـين، وربمـا يفتخـر بأنـه يقـف حائـرا أمـام الترجمـة العربيـة لكلمـة أجنبيـة.

ولا أدرى مـاذا يكـون شـعور هـذه الأسـر وهـؤلاء الآبـاء إذا عرفـوا أن جميـع شـعوب العـالم تعتـز بلغاتها، فالقانـون الفرنسـى – مثلا – يحرم اسـتيراد كلمـات مـن لغـات أخـرى لهـا مقابـل فـى اللغـة الفرنسـية.

وفـى عـام ١٩٨٣ م قامـت فرنسـا بتنظيـم البطولـة فـى الإمـلاء، وتوزيـع جوائـز تشـجيعية علـى المتفوقـين، وذلـك ضمـن تمجيدهـا لأحد إنجـازات الثـورة، وهـو تحقيق الوحـدة اللغويـة، وتدعيم اللغـة القومية.

ومنـذ وقـت قريـب طلـب معهـد اللغـة الروسـية مـن الرئيـس (بوتين) ومجموعـة مـن نـواب مجلـس (الدومـا)، ورؤسـاء المقاطعـات أداء امتحان فـى اللغـة الروسـية يتضمـن جملتـين مـن نـص أدبـى بطريقـة سـليمة، ولم يكـن المهـم هـو معرفـة مـن يجتـاز أو لا يجتـاز هذا الامتحـان، ولكن كان المهـم هـو جـذب الانتباه إلى مشـكلة اللغـة ومأأصابها مـن تدهور فى مفرادتهـا وقواعدهـا، مما دفع المسـئولين إلى محـاولات جادة لإصلاحها.

وقـد قـررت هيئـة اليونسـكوعام ١٩٩٩م اعتبـار يـوم ٢١ فبرايـر مـن كل عـام يومـا عالميـا للغـة الأم، بهـدف حمايـة اللغـات الأمهـات المهـددة بالانقـراض فـى أفريقيـا وآسـيا وأوروبـا، حيـث سـتواجه هـذه اللغـات فـى سـنوات العولمـة القادمـة تهديـدا بالتهميـش والانقـراض أمـام الغـزو السـاحق للإنجليزيـة عـبر الأقمـار الصناعيـة وأجهـزة الاتصـالات وشـبكة المعلومـات.

ولعـل هـذه الاهتمامـات بالمحافظـة علـى اللغـة القوميـة والاعتـزاز بهـا فـى معظـم دول العـالم تدفـع الأمهـات والآبـاء إلى أن يربـوا

أبناءهم على الاعتزاز بلغتنا العربية، بدلا من آفة انتشار الكلمات الأجنبية بشكل مثير فى حياتنا وتعاملاتنا.

وهناك آفة أخرى أصابت لغتنا العربية وهى انتشار الألفاظ العامية فى أجهزتنا الإعلامية، والثقافية مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وهكذا نجد أن معاول الهدم للغة العربية متعددة مابين انتشار الألفاظ العامية، وبالتالى نجد أن هدم اللغة أصبح مستهدفا على أيدى أبنائها وفلذات أكبادها، وليس كما كان من قبل على أيدى أعدائها ممن كانت أهدافهم موجهة للقضاء على هذه اللغة، حتى يسهل القضاء على هوية أهلها وعلى قوميتهم.

وقد بلغ من الاستهانة باللغة العربية أن كثيرا من الشباب يعتبرون العلم بها عيبا، والمتكلم بها متخلفا، وقد غرس المغرضون فى نفوس الشباب أن اللغة العربية غير قادرة على مسايرة العصر، واستيعاب مصطلحاته، بل أوعزوا إليهم أن أمراض هذه الأمة سببها التمسك بالفصحى.

وهكذا يتبين لنا أن واقع اللغة عند الشباب يتمثل فيما يأتى:

- إنهيار اللغة على ألسنتهم وأقلامهم.
- شيوع الأسماء والمسميات الأجنبية فى تعاملاتهم الحياتية.
- الابتعاد عن الفصحى وشيوع العامية، وفساد الذوق الأدبى.

ورحم الله زمانا كان الناس فيه غيورين على لغتهم، وكانت لديهم حاسة قوية لإدراك الخطأ اللغوى، ففى مرض الإمام الشافعى رضى الله عنه زاره أحد عواده، ودعا له قائلا: قوى الله ضعفك يا إمام، فضحك الإمام الشافعى، وقال له: أتدعو الله أن

يزيدنى ضعفا ؟ ادع الله أن يقوى عافيتى لا ضعفى، ونصحه بأن يتقن اللغة العربية.

وكان من يُخطئ فى نطق اللغة يتعرض لأشد العقاب، فقد ذهب رجل لسليمان بن عبد الملك وقال له: أصلح الله الأمير، إن (أبينا) قد هلك، فوثب (أخانا) وأخذ مالنا، فقال سليمان: لارحم الله أباك ولا أخاك ولامالك، وطلب السوط ليجلده، لأنه أخطأ فى اللغة العربية، حيث قال (أبينا) والصواب (أبانا)، وقال (أخانا) والصواب (أخونا).

ومن العبارات الخاطئة التى تتردد على الألسنة جهلا باللغة العربية قولهم فى الإجابة عن سؤال مثل: هل تريد مساعدتى؟ لا عافاك الله، أو لا شكرا، والصواب أن يقال: لا وعافاك الله، أو لا وشكرا، لأنه فى التعبير الثانى يدعو له بالعافية، أو يشكره على موقفه، بعكس التعبير الأول حيث ينفى ذلك، فانظر ماذا فعل حرف الواو فى معنى التعبيرين.

وانظر أيضا ماذا فعل التعريف والتنكير فى إحدى الاتفاقيات بين العرب وإسرائيل، حيث قال (أبا إبيان): (أراض) احتلتها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧م بدلا من كلمة (الأراضى)، وكأنه على علم بأسرار اللغة العربية.

ودار العلوم فى الماضى حينما لم تكن تفتح أبوابها إلا لأبناء الأزهر، وحينما لم يكن لها شريك فى اسمها كانت مهدا للغة الفصحى، حتى قال فيها الشاعر (على الجارم):

وجدت فيك بنت عدنان دارا ذكرتها بداوة الأعراب

وكانوا يقولون: تموت اللغة العربية فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم. كان ذلك فى الماضى، ولا أدرى ماذا يقولون الآن ؟

ومن الألقاب المعروفة للغة العربية أنها (لغة الضاد) أي اللغة التى ينطق فيها حرف (الضاد) نطقا واضحا، بينما تنطقه اللغات الأخرى (دالا)، فيقولون – مثلا – (مدرب التنس) بدل (مضرب التنس)، وهكذا كل كلمة فيها (ضاد) تنطق (دالا)، ولم يقتصر الأمر على الضاد، ولكن حروفا أخرى تفقد هويتها على ألسنة الشباب، فالطاء تصيرعندهم تاء، فيقولون – مثلا – (المجتمع التبكى) بدل (المجتمع الطبقى)، وكأن لفظ (التبكى) فيه رقة تناسب العصرية والتحضر، أما لفظ (الطبقى) فيه غلظة تدل على التخلف والتأخر.

وحرفا (الثاء) و (الذال) لاينطقان نطقا صحيحا فى معظم الألسنة المصرية، فلا تكاد تجد أحدا يخرج لسانه فى نطقهما، والانجليز لايتسامحون فى نطق الكلمتين (**this–that**) بدون إخراج اللسان، ولكننا فى اللغة العربية لانهتم بذلك، بل ربما يسخر البعض من إخراج اللسان فى نطق (الثاء والذال).

وهناك ظاهرة أخرى أشار لها الأستاذ أنيس منصور فى عموده اليومى بالأهرام (مواقف) بتاريخ ٢٠٠١/٥/٦ وهى أن الشباب يتكلم بسرعة فتتساقط الحروف، وتكون الكلمات مبتورة وغير واضحة ولا مفهومة، وتصبح اللغة العربية على ألسنة الشباب كأنها لغة الطير أصوات بلا حروف، والإنسان لايمكن أن يكون مفهوما إذا كان صوته غير مفهوم.

وياليت المربيون يعلمون التلاميذ كيف ينطقون، وكيف يتكلمون بوضوح، وياليتهم يخصصون دروسا للنطق والخطاب، لأن وضوح اللغة يبعث على تأمل أسرارها وجمال تركيبها، ودقة معانيها. ولكن مما يؤسف له أن مسألة النطق والخطاب أهملت تماما في مدارسنا وجامعاتنا، فلم يعد للقراءة الجهرية عناية تذكر، ولم يعد للامتحان الشفوي وجود، وكل شئ أصبح بالكتابة، حتى لغة التفاهم أوشكت أن تكون بالكتابة.

obeikan.com